البحرية في العصر الفاطمي

م.م. جواد كاظم حسن
قسم التاريخ

الكلمات المفتاحية:(البحرية ،الفاطمي،الافرنج،مصر،الاسطول)

ملخص البحث

منذ نشأة الدولة الفاطمية في المغرب وحكامها يتطلعون إلى زعامة العالم الإسلامي بامتلاك أسطولا بحريا ، والتي كان العباسيون يحتفظون بها على الرغم من ضعف سلطتهم ، وهم اشد بطشاً بالعلويين حتى في أطراف دولتهم مما أدى إلى هجرة الكثير من العلويين إلى أطراف الدولة العباسية تخفياً من عيونهم ،وبعد قيام دولة الفاطميين اهتموا كثيراً بالجيش والأسطول البحري الذي نشأ مع تأسيس الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا ، وتكمن أهمية هذا البحث بأنه يسلط الضوء على قوة الأسطول البحري الفاطمي .

وقسم البحث الى مبحثين مع خاتمة وهوامش البحث تناولنا في المبحث الاول نشأة الأسطول البحري الفاطمي في مصر.أما المبحث الثاني تناول تنظيم الأسطول البحري الفاطمي في مصر.

وقد استفاد الباحث في موضوعة بحثه من عدة مصادر اغنت البحث بمعلوماتها القيمة . منها كتاب(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار) للمقريزي (ت:٨٤٥هـ/ ١٤٤١م). فضلا عن كتاب(صبح الاعشى في صناعة الانشا) للقلقشندي (ت: ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

وقد تبين لنا في خاتمة البحث ان عدد مراكب الأسطول الفاطمي في خلافة المعز لدين الله ما يزيد على ستمائة قطعة مابين شواني ومسطحات وحمالات ومراكب ليلية ، موجودة في دور الصناعة الخمس في (دمياط والإسكندرية والفسطاط) .

وكانت السفن الحربية التي تميزت بها الدولة الفاطمية بصنعها بطريقة عجيبة تحفظها من التأثر بمياه البحر الأحمر وتنوع أشكالها ، على الرغم من هذا فقد كان أخفاق الأسطول الفاطمي في مواجهة الإفرنج و لعدة أسباب أهمها:

عدم تقدير أصحاب السلطة الحقيقة أهداف الإفرنج مما أدى إلى خداع قادة الفاطميين من قبل الإفرنج وسقوط مدن الساحل الشامي والفلسطيني وسيطرت الإفرنج بالتالي على غالب المدن الساحلية وبالتالي هزيمة الفاطميين وانكسارهم.

Navy in the fatimid era

m.mJawad kadhem Hassan
Department of Histoy
College of Imam Kadhim(p)

Abstract:

Since the establish of the Fatimid state in morocco and its rulers, they aspire to the leadership of the Islamic world by owning anaval fleet,which the Abbasids maintained despite their weak authority,and they are the most aggressive alawalin even in the outskirts of their state,which led to the migration of the abbasid state hidden from their eyes,after the establishment of the Fatimid state,they took great care of the army and the naval fleet,which arose with the establishment of the Fatimid state in north Africa,the importance of this research is that it highlights the power of the Fatimid fleet.

In the first part ,we discussed the emergence of the Fatimid fleet in Egypt,the second research dealt with the organization of the Fatimid fleet in Egypt,the researcher has benefited from a number of sources that enriched the research with valuable information,including the book of (preaching and consideration of the plans and effects) of mukherizzi 845 hi/1441ad,as well as the book(sobh al-ashi in the industry of al-anxa al-Qalqashdi) 821 AH/1418AD,We have found in the conclusion of the research that the number of boats in the fleet of the Fatimid Caliphate of the goats to the religion of God more than six hundred pieces shwani and surfaces and carriers and night boats,it is located in the role of the five industry in (Damitta,Alexandria and fustat) the warships that characterized the Fatimid state by creating them in a wonderful way to keep them from being affected by the waters of the Red Sea and the diversity of its froms, Despite this,the failure of the Fatimid fleet in the face of the Frankish and for several reasons most important:

The lack of appreciation of the owners of real power goals of the Afrang , which led to deceiving the leaders of the fatimids by the Afrang and the fall of the cities of the Shami and Palestinian coast and the control of the Abrang therefore most of the coastal cities and thus defeat the fatimids and their fracture

Keywords: Navy, Fatimid, Afrang, Egypt, Fleet)

المقدمة

منذ نشأة الدولة الفاطمية في المغرب وحكامها يتطلعون إلى زعامة العالم الإسلامي بامتلاك أسطولا بحريا ، والتي كان العباسيون يحتفظون بها على الرغم من ضعف سلطتهم ، وهم اشد بطشاً بالعلويين حتى في أطراف دولتهم مما أدى إلى هجرة الكثير من العلويين إلى أطراف الدولة العباسية تخفياً من عيونهم ،وبعد قيام دولة الفاطميين اهتموا كثيراً بالجيش والأسطول البحري الذي نشأ مع تأسيس الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا ، وتكمن أهمية هذا البحث بأنه يسلط الضوء على قوة الأسطول البحري الفاطمي .

وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في الحصول على الخشب الجيد الذي يصلح لبناء السفن الحربية حتى من بلاد الأعداء (الإفرنج) وحلفائهم ، أدى ذلك إلى تنوع السفن الحربية التي يتكون منها الأسطول في العصر الفاطمي ، وتحمل كل سفينة حربية عددا من المقاتلة ما عدا البحارة ، ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين ، من بينهم رئيس يعرف بأمير الأسطول ، وكان للأسطول ديوان يعرف بديوان الجهاد ،يقوم بالإشراف على بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية ودفع مرتبات الرجال العاملين فيها ،ومن مظاهر اهتمام الفاطميين بقواتهم البرية والبحرية ، الاحتفال بتوديعها عند تأهبها للرحيل حين مسير الأسطول.

وقسم البحث الى مبحثين مع خاتمة وهوامش البحث تناولنا في المبحث الاول نشأة الأسطول البحري الفاطمي في مصر.أما المبحث الثاني تناول تنظيم الأسطول البحري الفاطمي في مصر.

وقد استفاد الباحث في موضوعة بحثه من عدة مصادر اغنت البحث بمعلوماتها القيمة . منها كتاب(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار) للمقريزي (ت:٨٤٥هـ/ ١٤٤١م). فضلا عن كتاب(صبح الاعشى في صناعة الانشا) للقلقشندي (ت: ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

المبحث الأول : نشأة البحرية الفاطمية في مصر :

تعد الدولة الفاطمية الوحيدة في شرق البحر المتوسط لها أسطول بحري وقد تحملت بمفردها العبء الأكبر في المواجهة البحرية ضد الإفرنج وحلفائهم[١]. وبدأ إعداد الأسطول البحري الفاطمي عندما اتخذ الفاطميون (المهدية) مرفأً رئيساً ودارٍ لصناعة السفن و(دار الصناعة) هو اسم المكان الذي أُعدَّ لإنشاء المراكب البحرية[٢].

كما أن الفاطميين ولاسيّما الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وهو آخر خلفاء الفاطميين في المغرب، أفاد من موقع جزيرة صقلية لما فيه من موانئ وأحواض للسفن حرص على أن تكون السيادة والتفوق على سائر أساطيل البحر المتوسط، ومن ثمَّ ملأ كثيراً من موانئ الشام بوحدات الأسطول الفاطمي مرتبة بجميع الشواطئ الساحلية مثل الإسكندرية ودمياط وصور وعكا وعسقلان[٣]،كما استطاعت الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المعز لدين الله أن تصل بفضل أسطولها إلى أقصى ما وصلت إليه من قوة ونفوذ في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ،فصدت قواتها البحرية هجوماً بيزنطينياً على طرابلس الشام سنة (٣٦٤هـ/٩٧٧م)،كما استطاع الفاطميون بفضل هذا الأسطول الاحتفاظ بسيطرتهم على سواحل مصر والشام[٤] . ولقد بذلت الدولة الفاطمية جهودا للحصول على الأخشاب الضرورية التي تصلح لبناء السفن الحربية وكان يؤتى ببعضٍ منها من مناطق الغابات المغروسة في كثير من جهات الوجه القبلي ، وهي أشجار السنط الكثيرة التي كانت تنمو في أعمال البهنساوية والاشمونيين والاسيوطية والاخميمية والقوصية، وقد احتكر الفاطميون أجود أنواع الخشب لبناء الأسطول والمراكب الديوانية ، واتخذت لها حراسا يحمونها وقد أدى ذلك إلى ارتفاع أثمان أعواد أشجار السنط مما أدى إلى فرض الدولة على سكان النواحي المذكورة ضريبة نظير ما كان يسمح لهم به من قطع أطراف أشجار السنط التي لا تصلح لعمل مراكب الأسطول ، التي كان ينتفع بها فقط في الوقود[٥] ،وكان قطع أشجار السنط وجرها إلى السواحل لصناعة السفن يتم في الشهر الخامس من كل سنة ميلادية[٦] ،ولان أنتاج البلاد المصرية من الخشب لم يكن كافيا فضلا

عن بعض أنواعه لا تمتاز بالصلابة اللازمة لذلك اعتمد الفاطميون على ما كان يردهم من أخشاب الصنوبر الصقلية أو المغربية ، فضلا عن ما كانت تحمله منه سفن تجار البندقية إلى مدينة الإسكندرية وكثيرا ما تدخل الأباطرة البيزنطينيون لمنع المدن الايطالية من تزويد مصر بما تحتاج إليه من مادة الأخشاب ، إذ أمر دوق البندقية بوقف بيع الأخشاب التي تصلح لصناعة السفن والاكتفاء ببيع الأشجار التي لا تصلح لهذه الصناعة على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم.(٧)

أقام الفاطميون كثيراً من السفن المختلفة الأنواع وأهمها (الشلنديات) وهي مخصصة لحمل العتاد والرجال(٨).

و(الشواني) جمع (شونة)؛ وفيها آلات الهجوم والدفاع(٩)، وأنواع أُخرى كالمسطحات والطرادات وهي من السفن الصغيرة القوية السريعة تحمل الواحدة منها مائة رجل(١٠)، والعشاريات جمع (عشاري) وهي قوارب نهرية(١١). ويؤكد المؤرخون انه لم يكن هناك أثراً لقيام أسطول عند الطولونيين والأخشيديين قبل وصول الفاطميين مصر(١٢).

وقد وصف المقريزي عناية الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بالأسطول، قال: (لمّا سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة، اشتدَّ أمرهم بأخذ البلاد وقويت العناية بالأسطول في مصر، ثم قدم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وأنشأ المراكب الحربية واقتدى به بنوه)(١٣).

وقد كانت أهم مراكز إنشاء المراكب المسماة: (دور الصناعات)(١٤) في العصر الفاطمي توجد في القاهرة، فكانت (المقس)، التي أنشأها الخليفة المعز لدين الله(١٥)، في شمال القاهرة على ساحل النيل، قامت ببناء ستمائة قطعة(١٦)، كما كانت جزيرة الروضة التي عرفت في العهد الفاطمي باسم: (جزيرة مصر)، تقوم بإنشاء المراكب البحرية، فضلاً عن نشاطها بمدينة الإسكندرية ودمياط(١٧).

ويصف لنا المؤرخ المقريزي، كيفية صنع المراكب التي كانت تمخر البحر الأحمر وتسمى (جلاب) جمع (جلبة)، إذ كانت تبنى بطريقة عجيبة جداً، لا يستعمل فيها بسمار البتة، وإنما خشبها يخيّط بحبال مصنوعة من قشور الجوز المفتول وتدخلها عيدان النخل، ثم تسقى بالسمن أو بدهن الخروع أو دهن سمك القرش؛ وذلك لتليّن الأعواد، فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير(١٨).

ويرجع إنشاء (الصناعة) في مصر إلى الغزوة التي شنّها البيزنطيون وتبعها استيلاؤهم عليها في سنة (١٠١هـ/٧٢٠م) وتكبّد فيها المصريون خسائر فادحة.

وعلى أثر هذه الحملة قام (عنيسة بن إسحاق) (٢٣٨-٢٤٢هـ) والي مصر في ذلك الوقت بتحصين الموانئ المصرية، كما قام بإنشاء هذه (الصناعة) التي ظلت موضع عناية ولاة مصر إلى أن قامت الدولة الطولونية، وأنشأ فيها أحمد بن طولون أسطولاً كبيراً من السفن الحربية(١٩).

ولم تقف جهود الفاطميين بعد دخولهم مصر عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التي كانت تابعة لمصر واستيلائهم على مدنها مثل أنطاكية وحلب، إنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوي، فأنشأ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة سفينة(٢٠).

المبحث الثاني :تنظيم الأسطول البحري

وكان على رأس الأسطول المصري عشرة قواد بحريين ، يختار من بينهم رئيس هو (قائد القواد)،أو أمير الأسطول ويسمى في عصر الفاطميين (أمير الجيوش) (٢١).

وعلى وفق القلقشندي، كان عدد قواد الأسطول المدرجين في ديوان الجهاد، في آخر عهد الدولة الفاطمية، يزيد على خمسة آلاف، وهذا العدد لا يدلُّ بطبيعة الحال على عدد المقاتلين أو البحّارة، الذي كان عددهم لا بد كبير جداً(٢٢)،وتحمل كل سفينة حربية عددا من المقاتلة ما عدا البحارة، وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد يسمون

(النقباء) يقومون بجمع المقاتلة من أنحاء عديدة إذا ما تأهب الأسطول للخروج ، ولم يكن احد يجبر على العمل في السفن الحربية ، وكان الناس يقدرون عمل البحارة في الأسطول[٢٣] .

ويذكر المقريزي وجود قفص فيه حمام، من معدات أسطول صقلية يستعمل لإبقاء الاتصال بين مختلف وحدات الأسطول أو بينهُ وبين القيادة العامة في السير،فضلا عن أن مركب (رئيس الأسطول) كان يزود بفانوس خاص لتهدي به المراكب الأُخرى، فيقلعون بإقلاعه ويرسون برسوه[٢٤]. وفي حالة خروج الأسطول، كان (النقباء) وهم أشخاص معروفون من ديوان الجهاد، مسؤولين عن جمع المقاتلين للأسطول من بين الذين يعرفون الحرب البحرية، إذ كانوا يجمعونهم من جميع أرجاء البلاد، ولم يكن أحداً يجبرهم على العمل في الأسطول، وكان الناس يقدرون جهادهم ويسمونهم: (المجاهدون في سبيل الله) ويتبركون بهم[٢٥].

كان الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ينوي الدخول في مغامرات جديدة مع البيزنطيين في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط بعد أن ضمن التفوق الفاطمي في النصف الغربي من هذا الحوض. يقول ابن الطوير وهو يتحدث عن عناية الفاطميين بالأساطيل وحفظ الثغور:(وكان من أهم أمورهم احتفالهم بالأساطيل والأجناد ومواصلة إنشاء المراكب بمصر والإسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات وإنفاذها إلى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم مثل: صُور وعكا وعسقلان)[٢٦].

وتنوعت السفن الحربية التي يتكون منها الأسطول في العصر الفاطمي؛ منها الشواني[٢٧] التي امتازت بأبراج الدفاع والهجوم واحتوت على أماكن لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب ومن سفن الأسطول أيضا؛ الحراريق (جمع حراقة) وهي من المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذي يرمى بالمجانيق او السهام .

وكان من سفن الأسطول الطرائد (جمع طريدة) ؛ وتستعمل في نقل الخيول، والشلنديات وهي مراكب مسطحة يستعان بها في حمل العتاد والجند وتستعمل في حمل الذخيرة[٢٨] .

وكانت نفقات بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية ودفع مرتبات الرجال العاملين فيها ونفقات الأسطول البحري الأخرى قد خصصت الدولة الفاطمية لها ميزانية ضخمة من مستغلات الاقطاعات المحبوسة ومن مظاهر اهتمام الفاطميين بقواتهم البحرية الاحتفال بتوديعها عند تأهبها للرحيل لمحاربة الأعداء؛ يجلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح وهي المنظرة التي يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدي الخليفة فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب ثم يأمر الجيش بالمسير، فيحضر كذلك الخليفة بصحبة الوزير والأعيان ثم يودع الأسطول ويبدأ بالمسير[٢٩] ، وعند عودة الأسطول يقام احتفال كالذي أقيم عند رحيله ، إذ يحظر الخليفة بصحبة رجال الدولة ليشهد أسطوله الذي أحرز النصر.[٣٠]

كان بمصر في العصر الفاطمي خمسة دور للصناعة ، منها دور كانت موجودة قبل العصر الفاطمي، وقد انشا المعز لدين الله دور الصناعة التي بالمقس[٣١]، وأنشأ بها ستمائة مركب لم يرَ مثلها في البحر في ميناء [٣٢].

كان المقس ميناءً قديماً على النيل، عُرف بالمقس لأنَّ العاشر(وهو صاحب المكس)، كان يجلس به فقيل له المكس ثم قلبت الكاف قافاً فقيل المقس.[٣٣]

ويبدو أن الموضع استعمل كميناء للقاهرة لجلب ما يحتاج إليه القصر الفاطمي، إذ في سنة (٤١٥هـ/١٠٢٤م) وصلت إلى ساحل مصر (الفسطاط) مراكب مملوءة قمحاً.[٣٤]

وقد شبت النار في دار صناعة مصر في ٢٤ ربيع الآخر سنة ٣٨٦هـ، فاحترقت خمس عُشاريات امتدت ألسنة النيران منها إلى بقية سفن الأسطول، فأتت النار على ما في الأسطول من العُدد والسلاح، ولم تنج من هذا الحريق سوى ست سفن فارغة، وقد اتهم بالتسبب في هذا الحريق مجموعة من الروم من تجار مدينة أمالفي (Amalfi) الإيطالية كانوا يقيمون مع بضائعهم في الفسطاط في مبنى مخصص يُعرف بـ (دار مانك)، وقد نهبت العامة هذا الدار بما فيها من ثروات وقتلوا منهم أكثر من مائة رجل طرحوا جثثهم في الطرقات وقبضوا على الباقين وحبسوهم بدار صناعة مصر، وقد اعترف هؤلاء الروم

في محضر الوزير عيسى بن نسطورس ويانس الصقلي ومسعود الصقلي متولي الشرطة بأنهم أحرقوا الأسطول.[٣٥]

وقد أمر عيسى بن نسطورس الصنّاع في دار الصناعة بإعداد عشرين مركباً جديدة في الحال وطرح لهم الأخشاب اللازمة، وأصدر أمره باستحضار الأخشاب الموجودة عند التجار، ولم يدع عند أحد خشباً علم به إلاّ أخذه منه[٣٦] .

كما أن السفن التي تنشأ في صناعة الجزيرة أيام الخليفة الآمر بأحكام الله في مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أمر أن يكون إنشاء الشواني والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر وأنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم استعراض الأسطول، وأقر بأن الحربي والشلنديات تنشأ فقط في الصناعة بالجزيرة[٣٧].

ويذكر أن الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المعز لدين الله استطاعت أن تصل بفضل أسطولها إلى أقصى ما وصلت إليه من قوة ونفوذ في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، فصدّت قواتها البحرية هجوماً بيزنطياً على طرابلس الشام سنة (٣٦٤هـ/٩٧٧م)، كما استطاع الفاطميون بفضل هذا الأسطول الاحتفاظ بسيطرتهم على سواحل مصر والشام[٣٨] .

وقد اهتم الفاطميون كثيرا بمراكز إنشاء السفن ومن أهمها المسماة (دور الصناعات)[٣٩] ،التي توجد في القاهرة فكانت (المقس)، التي أنشاها الخليفة المعز لدين الله [٤٠] ، وتقع في شمال القاهرة على ساحل النيل، قامت ببناء ستمائة قطعة بحرية[٤١]، كما كانت جزيرة الروضة ، التي عرفت في العهد الفاطمي باسم (جزيرة مصر) ، تقوم بإنشاء المراكب البحرية فضلا عن نشاطها بمدينة الإسكندرية ودمياط[٤٢]، ويصف لنا المؤرخ المقريزي ، كيفية صنع المراكب التي كانت تمخر البحر الأحمر وتسمى (جلاب) جمع (جلبة)، إذ كانت تبنى بطريقة عجيبة جداً، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، وإنما خشبها يخيط بحبال مصنوعة من قشور الجوز المفتول وتدخلها عيدان النخل ، ثم تسقى بالسمن أو بدهن الخروع أو دهن سمك القرش وذلك لتلين الأعواد ، فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل

المسامير [٤٣]، وعلى الرغم من أن الفاطميين قد وقّعوا في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله معاهدة صلح مع الإمبراطور البيزنطي بأسيل الثاني سنة (٣٨٩هـ/١٠٠٩م) فقد واصلوا العناية بأساطيلهم لاعتقادهم أن البيزنطيين غير جادين في صلحهم، إذ عملوا على تدعيم قواعدهم البحرية في الشام مع العناية بأسطولهم طوال مدة الهدنة (٣٨٩-٤٠٩هـ/١٠٠٠-١٠٢٩م) التي سادها هدوء نسبي بسبب تلك المعاهدة.[٤٤]

وقد كان يرابط حول جزيرة (تنيس) دائماً ألف سفينة منها ما يخص التجار وغالبها يخص الخليفة، ويقيم في هذه الجزيرة جيش كامل السلاح احتياطياً كي لا يستطيع أحد من الإفرنج أو الروم أن يغير عليها.[٤٥] .

إنَّ الصراع البحري بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامي خلال حقبة الحروب الصليبية، كان الفاطميون الدولة الإسلامية الوحيدة في شرق البحر المتوسط التي لها أسطول بحري وقد تحمّلت بمفردها العبء الأكبر في المواجهة البحرية ضد الإفرنج وحلفائهم.[٤٦]

وعلى الرغم من أن الفاطميين كانت لهم شبكة تجارية عريضة ذات أهمية اقتصادية ضخمة عبر البحر الأحمر، إلا أنهم لم يكن لديهم أي تواجد عسكري بحري في هذه المنطقة قبل مواجهة الإفرنج.

لذلك هناك في المواجهة بين الفاطميين والإفرنج: المدة الحاسمة الواقعة بين سنتي (٤٩٢-٥٠٤هـ/١٠٩٩-١١١٠م) التي تمكن فيها الإفرنج الصليبيون من السيطرة على العديد من المدن الساحلية في فلسطين والشام، والحقبة الثانية الواقعة بين سنتي (٥٠٤-٥٦٤هـ/١١١٠-١١٦٢م) التي تمكن فيها الإفرنج الصليبيون من إحكام سيطرتهم على الساحل الشامي بعد سقوط صور سنة (٥١٨هـ/١١٢٤م) وعسقلان سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م)، فضلاً عن تعرض أمير مكة سنة (٥١٢هـ/١١١٧م) الشريف قاسم بن علي بن أبي هاشم بن فُلية، سفناً تجارية مصرية في ميناء عيذاب على البحر الأحمر فنهبوها وقتلوا جماعة من التجار الموجودين على متنها ورداً على هذا الموقف، أمر

الوزير الأفضل بن بدر الجمالي والي قوص (في مصر العليا)، أن ينشئ في ميناء عيذاب(نهاية طريق التجارة البحرية القادمة من الهند) حراريق (نوع من السفن الحربية التي ترمي النيران) لمواجهة مثل هذه المواقف.(٤٧)

ويذكر القلقشندي أنه كان للفاطميين بعيذاب أسطول يُتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها، خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم (البحر الأحمر) يعترضونه، وكان والي قوص يتولى الإشراف عليه .(٤٨)

كان استيلاء الإفرنج على سائر الساحل الفلسطيني (حيفا ٤٩٤هـ/١١٠٠م) وغيرها من المدن بمعاونة الأساطيل الإيطالية التي لم تواجه أية مقاومة بحرية إسلامية، وفي صيف سنة (٤٩٥هـ/١١٠٢م) وصلت قوات الفاطميين البحرية والبرية إلى فلسطين، وتمكنت من حصار يافا وأحرزت قواتها البرية انتصاراتٍ مرموقة ضد الصليبيين ولكن وصول السفن المسيحية وهزيمة الجيش الفاطمي وضع نهاية لحصار يافا.(٤٩)

إنَّ السبب الرئيس لإخفاق القوات الفاطمية في مواجهة الإفرنج يرجع إلى عدم تقدير الوزير الأفضل صاحب السلطة الفعلية في مصر لحقيقة أهداف الإفرنج في هذا الوقت، لذلك فإنَّ الفاطميين لم يقوموا بداية الأمر بأي عمل حاسم ضد الإفرنج، إذ كان الفاطميون ينظرون إلى الإفرنج على أنهم حلفاء لهم ضد خصومهم السياسيين والمذهبيين من السلاجقة وغيرهم ؛أدّى إلى تلكؤ الفاطميين في مواجهة الإفرنج إلى حصار هؤلاء لبيت المقدس ثم سقوطها في أيديهم في شعبان (٤٩٢هـ/١٠٩٨م).(٥٠)

وهكذا توالى سقوط مدن الساحل الشامي والفلسطيني في أيدي الإفرنج، إذ سقطت هذه المدن سنة (٤٩٥هـ/١١٠١م) واستولى الإفرنج على عكا سنة (٤٩٧هـ/١١٠٣م) بعد أن حاصروها من البحر أكثر من تسعين مركباً ومن البر بجيوش كثيفة، وفي سنة (٥٠٢هـ/١١٠٨م) استولوا على طرابلس، وفي العام الثاني سقطت بيروت وجبيل وبانياس.

وفي سنة (٥٠٤هـ/١١١٠م) سقطت صيدا، أما عسقلان كانت المدينة الوحيدة التي تحصن بها الفاطميون وظلت مصدر إقلاق دائم للإفرنج إلى أن سقطت بدورها سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م).[٥١]

الخاتمة:

منذ وصول الفاطميون إلى شمال أفريقيا كانت سياسة دولتهم الدفاع مدنهم ، وقد اكتسبت هذه السياسة النزعة البحرية ، وقد ورث الفاطميون هذه النزعة البحرية من أسلافهم الاغالبة الذين كانوا يملكون أسطولا بحريا ، تعزز أكثر فأكثر بفضل الجهاد ضد البيزنطة ، فقد تابع الخلفاء الفاطميون هذه السياسة البحرية في مصر ،فقد رأى المعز لدين الله أن صناعة السفن في مصر وخاصة السفن الحربية من اهم الصناعات في فجر الإسلام ، وكان للمصريين الفضل الأكبر في عظمة البحرية الإسلامية .

وقد بلغ عدد مراكب الأسطول الفاطمي في خلافة المعز لدين الله ما يزيد على ستمائة قطعة مابين شواني ومسطحات وحمالات ومراكب ليلية ، موجودة في دور الصناعة الخمس في (دمياط والإسكندرية والفسطاط) ، فضلا عن دور الصناعة في المقس ونستشف من ذلك أن هذا الأسطول الكبير كان القوة الرئيسية لصد هجمات البيزنطيين في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط بعد أن ضمن التفوق الفاطمي النصف الغربي من هذا الحوض.

كانت السفن الحربية التي تميزت بها الدولة الفاطمية بصنعها بطريقة عجيبة تحفظها من التأثر بمياه البحر الأحمر وتنوع أشكالها ، على الرغم من هذا فقد كان أخفاق الأسطول الفاطمي في مواجهة الإفرنج و لعدة أسباب أهمها:

عدم تقدير أصحاب السلطة الحقيقة أهداف الإفرنج مما أدى إلى خداع قادة الفاطميين من قبل الإفرنج وسقوط مدن الساحل الشامي والفلسطيني وسيطرت الإفرنج بالتالي على غالب المدن الساحلية وبالتالي هزيمة الفاطميين وانكسارهم.

الهوامش:

(1) Lev, Y, State and Society, P. 104.

(٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)،العبر وتاريخ المبتدأ والخبر،(بولاق-١٢٨٤هـ)، ٤١/٤.

(٣) القلقشندي،شهاب الدين أبو العباس احمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى صناعة الانشا،دار الكتب المصرية ،(القاهرة – ١٩١٢-١٩٣٨)، ٥٢٣/٣.

(٤) الإنطاكي ، يحيى بن سعيد (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م)،تاريخ الإنطاكي،نشر لويس شيخو،(بيروت -١٩٠٨م)،ص٣٨٦-٣٧٩ .

(٥) المقريزي ،تقي الدين احمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،(بولاق -١٢٧٠هـ)،١٦٦/١

(٦) ابن مماتي، أبو المكارم الاسعدي مهذب (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، قوانين الدواوين،تحقيق عزيز سوريال عطية،(القاهرة -١٩٤٣م) ،ص ٢٥

(٧) السيد،عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام،(بيروت – ١٩٢٧م)، ص ٩٣-٩٤

(٨) المقريزي، الخطط، ٤٨٣/١.

(٩) م.ن، ٤٨٢/١؛ القلقشندي،صبح الاعشى، ٥٢٣/٣.

(١٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤٨٣.

(١١) المقريزي، الخطط، ٤٨٢/١.

(١٢) ابن تغري بردي،أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٣٥٤م)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ،نشر دار الكتب المصرية في القاهرة ، ٩٩/٢.

(١٣) الخطط، ٣٥١/١.

(١٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥٢٣/٣.

(١٥) المقريزي، الخطط، ١٨٩/٢.

(١٦) م.ن، ١٩٥/٢.

(١٧) م.ن، ١٩٦/٢.

(١٨) م.ن، ٢٠٣/١.

(١٩) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب ،(القاهرة –١٩٥٨م)، ص ٢٨٨.

(٢٠) المقريزي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،تحقيق جمال الدين الشيال ،(القاهرة –١٩٦٧–١٩٧٣م)، ١٣٣/١.

(٢١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥٢٣/٣–٥٢٤.

(٢٢) م.ن، ٥٢٧/٣.

(٢٣) المقريزي، الخطط، ١٩٤/٢

(٢٤) م، ن، ٤٨٣/١.

(٢٥) م.ن، ١٩٣/١.

(٢٦) ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن (ت٦١٧ه/١٢٢٠م) ،نزهة المقلتين في أخبار الدولتين،تحقيق أمين فؤاد سيد، شتوت جارت–١٩٩٢م)، ص ٩٥.

(٢٧) المقريزي، الخطط، ٤٢٨/١

(٢٨) ماجد ،عبد النعم ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر،(القاهرة –١٩٥٣م) ٢٢١/١–٢٢٣

(٢٩) المقريزي، الخطط،٤٨٠/١؛ القلقشندي، صبح الاعشا،٥٢٣/٣

(٣٠) م، ن ١٩٣/٢

(٣١) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ١٣٩/١.

(٣٢) ابن الطوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ص ٩٤.

(٣٣) المقريزي، الخطط، ١٢١/٢.

(٣٤) المسبحي، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن احمد(ت٤٢٠ه/١٠٢٩)، أخبار مصر،تحقيق أمين فؤاد سيد،(القاهرة–١٩٧٨م)، ص ٣٩.

(٣٥) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ١٧٨.

(٣٦) م.ن، ص ١٧٨–١٧٩.

(٣٧) ابن المأمون،الأمير جمال الدين أبو علي موسى (ت٥٨٨ه/١١٩٢م)، أخبار مصر،تحقيق أمين فؤاد سيد،(القاهرة –١٩٨٣)، ٤٨٢/١.

(٣٨) الأنطاكي، يحيى بن سعيد، تاريخ الأنطاكي، ص ٣٦٨-٣٧٩.

(٣٩) القلقشندي، صبح الاعشى ،٥٢٣/٣.

(٤٠) المقريزي ،الخطط ،١٨٩/٢

(٤١) م ، ن ، ١٩٥/٢

(٤٢) م ، ن ،١٩٦/٢

(٤٣) الخطط ، ٢٠٣/١

(٤٤) صابر محمد دياب، سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط،(القاهرة-١٩٧٣م)، ص ١٧٧.

(٤٥) القلقشندي ،صبح الاعشى ،٥١٩/٣-٥٢٠.

(46) Lev, Y. State and Society, P. 104.

(٤٧) النويري،شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣ه/١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب ،تحقيق حسين نصار ومحمد عبد الهادي ،(القاهرة -١٩٨٠م)، ٢٧٨/٨-٢٧٩

(٤٨) صبح الأعشى، ٥١٩/٣-٥٢٠.

(٤٩) ابن القلانسي،ابو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت٥٥٥ه/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق،تحقيق امدروز،(بيروت -١٩٠٨)، ص ١٤٢-١٤٣.

(٥٠) أمين فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر،(القاهرة- ٢٠٠٧)، ٧٣٨.

(٥١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، (بيروت ــ ١٩٧٢م)، ص ١٠٨؛ أمين فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص ٧٣٨.

قائمة المصادر :

١-الإنطاكي ، يحيى بن سعيد (ت٤٥٨ه/١٠٦٦م)،تاريخ الإنطاكي،نشر لويس شيخو،(بيروت -١٩٠٨م)

٢- ابن تغري بردي،أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤ه/١٣٥٤م)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ،نشر دار الكتب المصرية في القاهرة

٣- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨ه/١٤٠٥م)،العبر وتاريخ المبتدأ والخبر،(بولاق-١٢٨٤ه)

٤-ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن (ت٦١٧ه/١٢٢٠م) ،نزهة المقلتين في
أخبار الدولتين،تحقيق أمين فؤاد سيد، شتوت جارت.
٥-القلقشندي،شهاب الدين أبو العباس احمد بن علي (ت٨٢١ه/١٤١٨م)، صبح الأعشى صناعة الانشا،دار الكتب المصرية ،(القاهرة – ١٩١٢-١٩٣٨))
٦- ابن القلانسي،ابو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت٥٥٥ه/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق،تحقيق امدروز،(بيروت -١٩٠٨)
٧-المسبحي، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن احمد(ت٤٢٠ه/١٠٢٩)، أخبار مصر،تحقيق أمين فؤاد سيد،(القاهرة-١٩٧٨م)
٨- ابن المأمون،الأمير جمال الدين أبو علي موسى (ت٥٨٨ه/١١٩٢م)، أخبار مصر،تحقيق أمين فؤاد سيد،(القاهرة -١٩٨٣
٩-المقريزي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،تحقيق جمال الدين الشيال ،(القاهرة -١٩٦٧-١٩٧٣م)
١٠- النويري،شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣ه/١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب ،تحقيق حسين نصار ومحمد عبد الهادي ،(القاهرة -١٩٨٠م)

المراجع الحديثة:

١-أمين فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر،(القاهرة- ٢٠٠٧)، ٧٣٨.
٢- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب ،(القاهرة -١٩٥٨م)
٣-صابر محمد دياب، سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط،(القاهرة-١٩٧٣م)
٤-السيد،عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام،(بيروت -١٩٢٧م)
٥-ماجد ،عبد النعم ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر،(القاهرة -١٩٥٣م)

المراجع الاجنبية:

1- Lev, Y, State and Society, P. 104